مختصر لطائف المعارف

للإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي

اختصره وعلق عليه

محمد بن سليمان بن عبد الله المهنا

فصلٌ لطيفٌ عن شَهْرُ صَفَر

مختصرٌ من كتاب « لطائف المعارف »

للإمام الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

وظائف شهر صفر

في الصَّحيحينِ: عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَ: «لا عدوى ولا هامةَ ولا صَفَرَ». فقال أعرابيٌّ: يا رسولَ اللهِ! فما بالُ الإبلِ تكونُ في الرَّملِ كأنَّها الظِّباء فيُخالِطُها البعيرُ الأجربُ فيُجْرِبُها؟ فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فمَنْ أعْدى الأوَّلَ؟»[1].

أمَّا العدوى، فمعناها أنَّ المرضَ يَتَعَدَّى مِن صاحِبِهِ إلى مَنْ يُقارِبُهُ مِنَ الأصحَّاءِ فيَمْرَضُ بذلكَ. وكانَتِ العربُ تعتَقِدُ ذلكَ في أمراضٍ كثيرةٍ منها الجربُ، ولذلكَ سألَ الأعرابيُّ عنِ الإبلِ الصَّحيحةِ يُخالِطُها البعيرُ الأجربُ فتَجْرَبُ، فقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فمَنْ أعْدى الأوَّلَ؟»، ومرادُهُ أنَّ الأوَّلَ لمْ يَجْرَبْ بالعدوى بل بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ فكذلك الثَّاني وما بعدَهُ.

(١) رواه البخاري (٥٧١٧)، ومسلم (٢٢٢٠).

وقد ورَدَتْ أحاديثُ أشْكَلَ على كثيرٍ مِنَ النَّاسِ فهمُها حتَّى ظَنَّ بعضُهُم أنَّها ناسخةٌ لقولِهِ: «لا عدوى».

مثلُ ما في الصَّحيحين: عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَ: «لا يُورِدُ ممرِضٌ على مصحٍ!»[1].

والممرِضُ: صاحبُ الإبلِ المريضةِ، والمُصِحُّ: صاحبُ الإبلِ الصَّحيحةِ. والمرادُ النَّهْيُ عن إيرادِ الإبلِ المريضةِ على الصَّحيحةِ.

ومثلُ قولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فِرَّ مِنَ المَجذومِ فرارَكَ مِنَ الأسدِ»[2].

وقولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الطَّاعُونِ: «إذا سَمِعْتُمْ بهِ بأرضٍ، فلا تَدْخُلوها»[3].

ودخولُ النَّسخِ في هذا كما تَخَيَّلَهُ بعضُهُم لا معنى لهُ، فإنَّ قولَهُ «لا عدوى» خبرٌ محضٌ لا يُمْكِنُ نسخُهُ، إلاَّ أنْ

(١) رواه البخاري (٥٧٧١)، ومسلم (٢٢٢١).
(٢) أخرجه البخاري معلقًا (٥٧٠٧).
(٣) أخرجه البخاري (٥٧٢٨)، ومسلم (٢٢١٨).

يُقالَ: هوَ نهيٌ عنِ اعتقادِ العدوى لا نفيٌ لها. ولكنْ يُمْكِنُ أنْ يَكونَ ناسخًا للنَّهيِ في هذهِ الأحاديثِ الثَّلاثَةِ وما في معناها.

والصَّحيحُ الذي عليهِ جمهورُ العلماءِ أنَّهُ لا نسخَ في ذلكَ، ولكنِ اختَلَفوا في معنى قولِهِ «لا عدوى»، وأظْهَرُ ما قيلَ في ذلكَ أنَّهُ نفيٌ لِما كانَ يَعْتَقِدُهُ أهلُ الجاهِليَّةِ مِنْ أنَّ هذهِ الأمراضَ تُعْدي بطبعِها مِن غيرِ اعتقادِ تقديرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لذلكَ، ويَدُلُّ على هذا قولُهُ «فمَن أعْدى الأوَّلَ»، يُشيرُ إلى أنَّ الأوَّلَ إنَّما جَرِبَ بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ فكذلك الثَّاني وما بعدَهُ[1].

(١) علَّق محقِّق كتاب لطائف المعارف: الشيخ عامر علي ياسين، بهذا التعليق الجيد حول حديث (لا عدوى) فقال: مسألة العدوى بين السُّنَّة النبويَّة والطبّ الحديث باب واسعٌ جدًا، لا تصلح حواشي هذا الكتاب للتفصيل فيه، ولكنّي لن أخليها من فكرة مختصرة عنها:

أولاً: يرى الأطباء المعاصرون:

[١] أنَّ العدوى أمرٌ صحيحٌ ثابتٌ في بعض الأمراضِ لا فيها جميعًا.

[٢] أنَّ انتقال العامل الممرض من زيد إلى عمرو لا يعني أنَّ عمرًا سيصاب بالمرض يقينًا، بل هاهنا عوامل عدَّة داخليّة وخارجيّة تساعد على ظهور المرض أو تقاومه، وحصول المرض يعتمد على محصّلة هذه العوامل.

[٣] أنَّ إصابة زيد بالمرض ثمَّ إصابة عمرو به بعد ملابسة زيد لا يعني=

= بالضرورة أنَّ زيدًا أعدى عمرًا، بل من الممكن جدًا أن يكون العكس صحيحًا. فهذه قضايا صحيحة وثابتة لا يختلف فيها طبيبان.

ثانيًا: أرسى النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسألة العدوى الطبيَّة والحجر الصحِّي في قوله: «لا يورد ممرض على مصحّ»، وقوله: «فرّ من المجذوم فرارك من الأسد»، وقوله: «إذا وقع الطاعون بأرض فلا تفرّوا...». فهذه نصوص ثلاثة غاية في الوضوح لا ينبغي أن نتغافل عن مدلولاتها إطلاقًا.

ثالثًا: وكذلك فقد صحّ عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أوجه قوله: «لا عدوى»، جاء هذا بأصحّ الأسانيد عن جماعة من الصحابة يحيل العقل تخطئتهم فيما نقلوه.

رابعًا: لأهل العلم أقوال كثيرة في التوفيق بين هذه النصوص التي ظاهرها التناقض، ولا يخلو أغلبها من نظر يحول دون الأخذ به، وأولاها بالصواب فيما أرى:

[١] ما اختاره ابن القيّم في «مفتاح دار السعادة» من حمل إثباته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للعدوى على أنَّها جزء سبب وحمل نفيه لها على أنَّها سبب تامّ، فهذا أكثر الأقوال تطابقًا مع معطيات الطبّ المعاصر.

[٢] أن يكون محلّ نفي العدوى القلب ومحلّ إثباتها البدن، ففي ذلك نهي للمريض عن اعتقاد أنَّ فلانًا هو الذي نقل إليه العدوى، وهذا أيضًا يتطابق مع معطيات الطبّ المعاصر؛ لأنَّ جزم المريض بأنَّ فلانًا بالذات هو الذي أعداه غير مقبول علميًا في كثير من الأحوال.

[٣] أن يكون محلّ نفي العدوى في العلاقات بين المسلمين، فلا ينبغي لأحد أن يتَّهم فلانًا من الناس بأنه سبب مرضه وأصل عدواه؛ لأنَّه اتِّهامٌ لا يستند إلى أصلٍ علميٍّ. =

وأمَّا قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا هامةَ»، فهوَ نفيٌ لِمَا كانَتِ الجاهليَّةُ تَعْتَقِدُهُ: أنَّ الميِّتَ إذا ماتَ صارَتْ روحُهُ أو عظامُهُ هامةً، وهوَ طائرٌ يَطيرُ. وهو شبيهٌ باعتقادِ أهلِ التَّناسُخِ أنَّ أرواحَ الموتى تَنْتَقِلُ إلى أجسادِ حيواناتٍ مِن غيرِ بعثٍ ولا نشورٍ، وكلُّ هذه اعتقاداتٌ باطلةٌ جاءَ الإسلامُ بإبطالِها وتكذيبِها.

ولكنِ الذي جاءَتْ بهِ الشَّريعةُ «أنَّ أرواحَ الشُّهداءِ في حواصلِ طيرٍ خضرٍ تَأْكُلُ مِن ثمارِ الجنَّةِ وتَرِدُ مِن الجنَّةِ إلى أنْ يَرُدَّها اللهُ تَعالى إلى أجسادِها يومَ القيامةِ»[1].

وأمَّا قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ولا صَفَرَ»، فاخْتُلِفَ في تفْسيرِهِ: فقالَ كثيرٌ مِنَ المتقدِّمينَ: الصَّفرُ داءٌ في البطنِ، يُقالُ:

= [٤] أن يكون محلُّ نفي العدوى أن يطالب فلانًا من الناس بتعويض ما أصابه أو أصاب دوابّه من المرض للسبب السابق نفسه.

[٥] ولا يبعد أن تكون هذه الأمور جميعًا صحيحة ومقصودة بنفي العدوى. والله أعلى وأعلم.

(١) رواه مسلم (١٨٨٧).

إِنَّهُ دودٌ كبارٌ، وكانوا يَعْتَقِدونَ أَنَّهُ يُعدِي فنَفى ذلكَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقالَتْ طائفةٌ: بلِ المرادُ بِـ«صَفَر» شهرُ صفر، ثمَّ اختَلَفوا في تفسيرِهِ على قولينِ:

أحدُهُما: أنَّ المرادَ نفيُ ما كانَ أهلُ الجاهليَّةِ يَفْعَلونَهُ في النَّسيءِ، فكانوا يُحِلُّونَ المُحَرَّمَ ويُحَرِّمونَ صَفَرًا مكانَهُ، وهذا قولُ مالكٍ.

والثَّاني: أنَّ المرادَ أنَّ أهلَ الجاهليَّةِ كانوا يَسْتَشْئِمونَ بصفر ويقولونَ: إِنَّهُ شهرٌ مشؤومٌ، فأبْطَلَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلكَ. وهذا حكاهُ أبو داودَ عن محمَّدِ بنِ راشدٍ المكْحولِيِّ عمَّن سَمِعَهُ يقولُ ذلكَ.

ولعلَّ هذا القولَ أشبهُ الأقوالِ[1]، وكثيرٌ مِنَ الجهَّالِ

(١) أشبه الأقوال: أي أقربها للصواب، وهي عبارة مستعملة في كتب الفقه، ولعل معناها في الأصل: أشبه الأقوال بالسُنة أو بنص الإمام أو بأصول المذهب.

يتَشاءَمُ بصَفَر، وربَّما يَنْهى عنِ السَّفرِ فيهِ. والتَّشاؤمُ بصَفَر هوَ مِن جنسِ الطِّيَرَةِ المنهيِّ عنها. وكذلكَ التَّشاؤمُ بيومٍ مِنَ الأيَّامِ كيومِ الأربعاءِ.

وكذلكَ تشاؤمُ أهلِ الجاهليَّةِ بشوَّالٍ في النِّكاحِ فيهِ خاصَّةً. وقد قيلَ: إنَّ أصلَهُ أنّ طاعونًا وَقَعَ في شوَّالٍ في سنةٍ مِن السِّنينَ، فماتَ فيهِ كثيرٌ مِن العرائِسِ، فتشاءَمَ بذلِكَ أهلُ الجَّاهليَّةِ. وقد ورَدَ الشَّرْعُ بإبْطالِهِ.

قالَتْ عائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: تَزَوَّجَنِي رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شوَّالٍ، وبَنى بي في شوَّالٍ، فأيُّ نسائِهِ كانَ أحظى عندَهُ مِنِّي؟! وكانَتْ عائِشَةُ تَسْتَحِبُّ أنْ تُدْخِلَ نساءَها في شوَّالٍ.

وفي الجملةِ، فلا شؤمَ إلاَّ المعاصي والذُّنوبُ، فإنَّها تُسْخِطُ اللهَ، فإذا سَخِطَ اللهُ على عبدِهِ، شَقِيَ في الدُّنيا والآخرةِ، كما أنَّهُ إذا رَضِيَ عن عبدِهِ سَعِدَ في الدُّنيا والآخرةِ.

قالَ بعضُ الصَّالحينَ، وقد شُكِيَ إليهِ بلاءٌ وَقَعَ في النَّاسِ،

فقالَ: ما أرَى ما أنتُم فيهِ إلاَّ بشؤمِ الذُّنوبِ.

وقالَ أبو حازمٍ: كلُّ ما شَغَلَكَ عنِ اللهِ مِن أهلٍ أو ولدٍ أو مالٍ فهوَ عليكَ شؤمٌ.

وقد قيلَ:

فَـلا كانَ ما يُلْهِي عَـنِ اللهِ إنَّهُ يَضُرُّ وَيُـؤْذِي إنَّـهُ لَمَشُومُ

فالشُّؤمُ في الحقيقة هوَ المعصيةُ، واليُمنُ هوَ طاعةُ اللهِ وتقواهُ، كما قيلَ:

إنَّ رأيـًا دَعـا إلى طاعـةِ اللـ ـهِ لَـرَأْيٌ مـبـارَكٌ مَيْمونُ

والعدوى التي تُهْلِكُ مَنْ قارَبَها هيَ المعاصي، فمَنْ قارَبَها وخالَطَها وأصَرَّ عليها، هَلَكَ، وكذلكَ مخالطةُ أهلِ المعاصي ومَنْ يُحَسِّنُ المعاصي ويُزَيِّنُها ويَدْعو إليها مِن شياطينِ الإنسِ، وهُمْ أضرُّ مِن شياطينِ الجنِّ.

قالَ بعضُ السَّلفِ: شيطانُ الجنِّ تَسْتَعيذُ بِاللهِ منهُ فيَنْصَرِفُ، وشيطانُ الإنسِ لا يَبْرَحُ حتَّى يوقِعَكَ في المعصيةِ.

وفي الحديث: «يُحْشَرُ المرءُ على دينِ خليلِهِ، فلينظُرْ أحدُكُمْ مَنْ يُخالِلُ»(١).

وفي حديثٍ آخرَ: «لا تَصْحَبْ إلاَّ مؤمنًا ولا يَأْكُلْ طَعامَكَ إلاَّ تقيٌّ»(٢).

ومِمَّا يُرْوى لعَلِيِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فَلاَ تَصْحَبْ أخا الجَهْلِ ... وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ
فَكَمْ مِنْ جاهِلٍ أرْدَى ... حَكيمًا حينَ آخاهُ
يُقاسُ المَرْءُ بِالمَرْءِ ... إذا ما المَرْءُ ماشاهُ
وَلِلشَّيءِ على الشَّيْءِ ... مقاييسٌ وأشْباهُ
ولِلْقَلْبِ عَلى القَلْبِ ... دَليلٌ حينَ يَلْقاهُ

فالعاصي مشؤومٌ على نفسهِ وعلى غيرِهِ، فإنَّهُ لا يُؤْمَنُ أنْ يَنْزِلَ عليهِ عذابٌ فيَعُمَّ النَّاسَ، خصوصًا مَنْ لمْ يُنْكِرْ عليهِ عملَهُ، فالبعدُ عنهُ متعيِّنٌ، فإذا كَثُرَ الخَبَثُ هَلَكَ النَّاسُ عمومًا.

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وقال: حديث حسن غريب.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥). وإسناده حسن

وكذلكَ أماكنُ المعاصِي وعقوباتُها يَتَعَيَّنُ البعدُ عنها والهربُ منها خشيةَ نزولِ العذابِ، كما قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابِهِ لمَّا مَرَّ على ديارِ ثمودَ بالحِجْرِ: «لا تَدْخُلوا على هؤلاءِ المُعذَّبينَ، إلاَّ أنْ تكونوا باكينَ، خشيةَ أنْ يُصيبَكُمْ ما أصابَهُم»[1].

ولمَّا تابَ الذي قَتَلَ مئةَ نفسٍ مِن بَني إسرائيلَ وسَألَ العالِمَ هلْ لهُ مِنْ توبة، قالَ لهُ: نعم، فأمَرَهُ أنْ يَنْتَقِلَ مِن قريةِ السُّوءِ إلى القريةِ الصَّالحةِ، فأدْرَكَهُ الموتُ بينَهُما، فاخْتَصَمَ فيه ملائكةُ الرَّحمةِ وملائكةُ العذابِ، فأوْحى اللهُ إليهِم: أنْ قيسوا بينَهُما، فإلى أيِّهِما كانَ أقرَبَ فألْحِقوهُ بها، فوجَدوهُ إلى القريةِ الصَّالحةِ أقربَ برميةِ حجرٍ، فغُفِرَ لهُ[2].

هجرانُ أماكنِ المعصيةِ مِن جملةِ الهجرةِ المأمورِ بها، فإنَّ المهاجرَ مَن هَجَرَ ما نَهى اللهُ عنهُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠) من حديث ابن عمر.

(٢) هذا جزء من حديث مشهور أخرجه البخاري ومسلم.

قالَ إبراهيمُ بنُ أدْهَمَ: مَنْ أرادَ التَّوبَةَ، فلْيَخْرُجْ مِن المظالِمِ، ولْيَدَعْ مخالطَةَ مَن كانَ يُخالِطُهُ، وإلاَّ، لمْ يَنَلْ ما يُريدُ.

احْذَروا الذُّنوبَ، فإنَّها مشؤومَة، عواقبُها ذميمة، وعقوباتها أليمة، والقلوبُ المحبَّةُ لها سقيمة، والنُّفوسُ المائلةُ إليها غيرُ مستقيمة، والسَّلامةُ منها غنيمة، والعافيةُ منها ليس لها قيمة[1]، والبليَّةُ بها - لا سيَّما بعدَ نزولِ الشّيبِ - داهيةٌ عظيمة.

طاعَةُ اللهِ خَيْرُ ما اكْتَسَبَ العَبْـ ـدُ فكُنْ طائِعًا للهِ لا تَعْصِيَنْهُ
ما هَلاكُ النُّفوسِ إلاَّ المعاصِي فَاجْتَنِبْ ما نَهَاكَ لا تَقْرَبَنْهُ
إنَّ شَـيْئًا هَـلاكُ نَفْسِـكَ فيـهِ يَنْبَغي أنْ تَصونَ نَفْسَكَ عَنْهُ

يا مَن ضاعَ قلبُهُ! انْشُدْهُ في مجلسِ الذِّكرِ، عَسى أنْ تَجِدَهُ.
يا مَن مَرِضَ قلبُهُ! احْمِلْهُ إلى مجلسِ الذِّكرِ، لَعَلَّهُ أنْ يُعافى.

مجالسُ الذِّكرِ مارَسْتاناتُ[2] الذُّنوبِ، تُداوى فيها أمراضُ

(١) معنى قول المؤلف: «والعافية منها ليس لها قيمة»: أنَّ العافية من الذنوب أمر عظيم لا يُقدَّر بثمن.
(٢) المارستانات: جمع مارستان، وهو المستشفى.

القلوبِ كما تُداوى أمراضُ الأبدانِ في مارستاناتِ الدُّنيا، ونزهٌ لقلوبِ المؤمنينَ تتَنَزَّهُ فيها بسماعِ كلامِ الحكمةِ كما تَتَنَزَّهُ أبصارُ أهلِ الدُّنيا في رياضِها وبساتينِها.